

حول ظاهرة الغموض في الشعر الجديد

بقلم فضل تامر

والحصارية الاخرى .

لقد تمكن الشاعر الجديد من خلق اشكال فنية وتعبيرية ناضجة عبر تفاعله مع الحركة الدائميكية للمجتمع العربي مطورا بذلك القصيدة الفنية ومانحا اياها ابعادا والوانا جديدة لم نعرفها القصيدة الكلاسيكية سابقا . والواقع ان عمق التفيرات التي طرأت على القصيدة الفنية لم يكن ذا صفة كمية فقط بل يمكن القول بانه كان ذا صفة نوعية ايضا حيث شكلت ونمت خلال هذه العملية خصائص وابعاد جديدة لها . الا انها لم تتحدد وتتكامل بشكل نهائي بعد . فهي لا تزال في طور التكوين والتشكيل والنضج (١) . وهذا يجعلها تجتاز مراحل تطورية متتابعة نتيجة عدم استقرار وثبات قيمها وملامحها الجمالية والتكنيكية والحياتية خاصة وان عملية التلاؤم بين الشكل والمضمون في الشعر لا تتم ونضج دفعة واحدة بل عبر صراع عنيف يعيشه الشاعر لتحقيق تكامل ووحدة القصيدة ونوازن مختلف مكوناتها العاطفية والفكرية . والبناء الجديد للقصيدة الفنية يعتبر مقفدا عند مقارنته بالقصيدة الكلاسيكية . فلقد انبثقت اشكال بنائية متقدمة وبدا الشاعر يهجر المباشرة والتقريبية ويعتمد الابعاء والرمز والبناء بالصور الشعرية . . عن طريق ايجاد « معادلات موضوعية » لانفعالاته وافكاره وتجاربه . . ولا شك ان عملية بناء القصيدة الجديدة خلال الاشكال التعبيرية اللامباشرة كالتعبير بالصور تعبيرا بنائيا ونمو البناء الدرامي في القصيدة وكثير من الملامح الملحمية واللجوء الى الرمز والاسطورة والحكاية وغيرها . . كلها ذات قيمة ثورية كبيرة فتفتح الطريق امام الشعر العربي للوقوف في مرتبة الشعر العالمي ، الا انها قد تتحول على يد بعض الشعراء الى عامل هام في ارباك وتشتت الجو الشعري واغراقه بالتعقيد والغموض والضبابية . ان استخدام الادوات التكنيكية والاشكال التعبيرية الجديدة بشكل مفتعل وفج ودونما اصالة وتفاعل مع وايمنية المضمون والتجربة الشعرية قد يحيل القصيدة الى بناء ميكانيكي مهزوز ومصنوع بشكل قسري . فتحتشد عدد متنافر من الصور واللفظات والخطوط والالوان والاقايم ، دونما ضرورة فنية وحياتية ، يتحمل في احيان كثيرة ، مسؤولية اغراق الرؤية تحت سناج كفيف من الضباب الخائق خاصة عندما يكون هذا الاستخدام لغراض زخرفية مصطنعة او للاستعارة البتذلة ويمعزل عن النمو الداخلي للتجربة الحية . ان الاستخدام الواعي الخلاق للاشكال البنائية والتعبيرية المعاصرة يتطلب نفهما واستيعابا عميقا لابعادها وطاقاتها الشرة . . وذلك لتجنب التخبط والاستخدام العشوائي البتذل لها . فاللجوء الى الاسطورة مثلا بعد جديد تكسبه القصيدة الجديدة يهبها مذاقا جديدا وطاقات وافاها رائعة ، مكنت الشاعر من التعبير عن بعض التجارب الحياتية المعاصرة التي لا يمكن تقديمها عبر الاشكال والقيم الجمالية والتكنيكية للقصيدة الكلاسيكية . الا ان هذا البعد قد يتحول الى واسطة لهرب الشاعر من الواقع الاجتماعي وتصله من ممارسة مهماته الحياتية وبالتالي انزاله عن الحياة وحركتها الدافقة . ودراسة الشعر العالمي وخاصة نتاجات بعض الشعراء المعروفين في الغرب ، تكشف لنا عن هذه الحقيقة ، حيث

تجابه القصيدة العربية الجديدة مشكلات تكنيكية وجمالية وحياتية عديدة خلال عملية تكونها وتكاملها الراهنة تستدعي دراسات جادة مستفيضة . ومن اهم هذه المشكلات الملحة البارزة ظاهرة الغموض التي تطفى على نتاجات العديد من شعرائنا المعاصرين وتتخذ في هذا الظرف بالذات اهمية استثنائية كبيرة حيث يتصاعد النضال التحرري قسوى الوطن العربي وتطرح مسألة وضع الادب في خدمة الجماهير ودفاعا عن الخير والجمال والانسانية . وقد كانت اثاره القضية على صفحات « الاداب » في « نقد الفوائد » من قبل الدكتور احمد كمال زكي ومن قبل معظم نقاد الادب التفانة طيبة ستتحقق التقدير والمناية . واعتقد ان الوقت قد حان لتناول هذه الظاهرة بما تستحقه من اهتمام وعناية خاصة انها اخذت نستفعل اخيرا وتعرض الشعر الجديد عموما الى خطر الانزعال والرفض من قبل الجمهور وبالتالي تحرمة من النسخ الذي يمهده بالحياة والعافية .

ولا شك ان معالجة ظاهرة هامة كهذه تتطلب اسهام جميع الشعراء والنقاد والكتاب في دراسة جوانب واسباب المسألة وامكانية انقاذ القصيدة الجديدة من خطر السقوط نهائيا في قبو التعقيم والانفلاق . ومن المفيد طبعا تشخيص البررات والعوامل التي ادت الى الغموض في الشعر العالمي ولكن يجب عدم الركون لها او تطبيقها على نفس الظاهرة في شعرنا الحديث . فمن المعروف جيدا ان الظاهرة ليست جديدة بالنسبة للشعر العالمي . فلقد عرف الشعر الاوربي مثلا اتجاهات شعرية عديدة اسرفت في السير في هذا الطريق . ولا شك ان ذلك مرتبط بالظروف التاريخية التي نما فيها الشاعر الغربي وتكامل وعيه ووجدانه . ففي ظروف التعقد الحضاري ونفاقم ازمة العصر الصناعي وتناقضاته الحادة فقد عدد كبير من الفنانين الرغبة في الارتباط بالعالم الخارجي ورفضوا قيمه وراحوا يتفوقون داخل ذواتهم وعوالمهم الخاصة مسقطين من حسابهم مسألة تحقيق اتصال مع الجماهير . وقد كانت رحلتهم هذه تمثل انزعالا عن الطابع العنيف للانساني للعلاقات الاجتماعية والانتاجية ولكل مظاهر البناء الفكري وتنصلا من مجابهة مهماتهم الحياتية في الاحتجاج على كل المظاهر اللانسانية . ويمكن القول بان الاضطراب والانفلاق الذي ساد نتاجات بعض الشعراء الاوربيين يعكس الفوضى والاضطراب والنمزق الذي يجتاح الكيان العام للمجتمع الراسمالي والتخبط في ادراك حركة الواقع المذكور .

ومن هنا نلاحظ ان وضع الشاعر العربي المعاصر يختلف كثيرا عن وضع الشاعر في المجتمع الاوربي وذلك لان الشاعر الجديد قد ولسد في غمرة النضال المتصاعد الذي تخوضه الشعوب العربية وخلال تحولات اجتماعية عميقة طرأت على وضع المجتمع العربي وتميز بارتباطه العميق والاصيل بقضية الحياة والشعب والانسانية . ولذا فان محاولة تطبيق اسباب ومبررات ظاهرة الغموض في الشعر الاوربي مثلا على نفس الظاهرة في شعرنا الجديد مسألة فيها اجحاف كبير واهمال للظروف الموضوعية والذاتية للمجتمع العربي الحديث ولوضع الشاعر الخاص فيه . ولهذا يجب نلمس اسباب هذه الظاهرة في داخل كيان القصيدة العربية الجديدة وفي وضع الجمهور ومختلف المؤثرات الفكرية

(١) في عدد قادم سأحول تسجيل ملاحظات عن « افق تطور القصيدة

الفنائية الجديدة » .

المضطربة التي تنمق فيها كافة العلاوات والارتباطات المنطقية لحركة الاحداث ولنمو التجربة الداخلية الخاصة للشاعر . وهي يمكن تبريرها عند دراسة الظروف التاريخية التي عاشها كوليردج ووضع الشعر الانجليزي آنذاك .

ونظرا لظروف المجتمع العربي المفايرة ، فعلى الشاعر العربي ان يقف موقفا نقديا من الاتجاهات الشعرية العالمية ومن تجاربه الشعرية والداخلية وان لا ينجر في دروب وعرة مضللة كالاستسلام للخيسال الرومانسي الجامح ، الذي لم يعد يتلام ووضعا الحاضر . وهذا لا يعني انكارا وجاهلا لقيمة الخيال الشعري ، فهو عنصر رئيسي في نمو وخلق وصياغة الجو الشعري ، الا ان الاسراف المفرط في الخيال قد يؤدي الى قطع الصلة بالواقع التاريخي والتجربة ويؤدي الى التحليق في عوالم لا واقعية حالة تجنذب احيانا الكثير من الشعراء المبدعين . ولا شك ان ذوق عصرنا لم يعد يستسيغ التحليقات فسي عوالم الخيال والطبيعة والعوالم اللامرئية كفاية بحد ذاتها كما كان يفعل شييلي وكيتس ودي موسية وغيرهم من رومانسيي القرن التاسع عشر .

ولذا يجب تحقيق توازن معين بين مختلف عناصر الخيال والمكونات العاطفية والفكرية والجمالية داخل القصيدة . وهذا لا يتم الا بتفهم صائب لطبيعة العمل الشعري ومركز الخيال في خلقه وتكوينه .

الا ان الادوات والاشكال الجديدة التي تفتح طريقا واسعا لتطور واغناء القصيدة الفنية الجديدة تتحول احيانا الى كابوس رهيب يخفق الوضوح والشفافية وهرض الشعر الجديد لخطر الانعزال عن الجمهور وبالتالي يفرغ ناقوس الخطر للشعر عموما .

وعلى الطرف الاخر يقف التجريد احيانا عائقا في طريق الانفتاح والوضوح ويحيل القصيدة الى تشكيلة من المعادلات الذهنية والفلسفية المجردة . ويضعف الطابع الحسي الشفاف للعالم الشعري . ورغم ان شعراء عالميين قلائل نجحوا في استخدام التجريد في اشعارهم ، الا ان

مثلت العودة الى الاسطورة ، لدى بعض الشعراء ، نزوعا الى الماضي وتتوقفا في عالم الحلم واللاوعي ، والذات المنغلقة . ولذا فان علسى الشاعر العربي استخلاص المفاهيم والقيم والرموز التقدمية والانسانية في التراث الميثولوجي والفولكلوري واعادة بعث الاسطورة من الداخل للتصير عن تجربة معاصرة حية . . نساهم في اثناء الحياة وتقديم رؤية عميقة لها ونزيد من ارتباطنا وتعلقنا بها . وهذه مسألة يجب ان يضعها الشاعر العربي في مركز اهتمامه وان لا يوفعه السحر الغريب لعالم الميثولوجيا في مناهات قد نمنسج تجربته ونضع سدودا وجدراانا امام الجماهير . وبهذا فان الاسطورة بحد ذاتها لا تتحمل مسؤولية الفموض في الشعر بل هو تناول غير الناصح لها والافتعال فسي استخدامها الذي يتورط فيه بعض الشعراء في محاولة لتقليد بعض النماذج الشعرية العالمية ولاتارة جو ضبابي فانم حول نجاربهم ونناجانهم الشعرية بشكل مقصود . ودراسة شعرنا الجديد نبين لنا بجلاء نجاح عدد كبير من شعرائنا المبدعين في استخدام التراث الميثولوجي عموما كما تبين فشل عدد اخر من الشعراء في تناول هذه التجارب .

لقد تمكن الشاعر الجديد من تمثّل وبفهم العديد من الفنون البلاسيكية والادبية واعاد صياغتها وتشكيلها داخل القصيدة وفق ما سنلزمه طبيعة التجربة الشعرية ذاتها . وهو لم يعد يطفو فوق الواقع الخارجي . بل راح يفوص الى الاعماق الداخلية للانسان ليكتشف طبيعة الصراعات الداخلية للنفس البشرية ويعري بمهارة كل مخزوناها . وهذا تناول للعالم الداخلي قد حدد زاوية جديدة للرؤية وخلق تركيبات وتشابكات معقدة نسبيا في التكنيك والبناء تتلام وطبيعة عالم الحلم واللاوعي والاصداء الداخلية . وهذا افق جديد يكتشفه الشعر العربي . الا ان بعض الشعراء يطلق كل الكوى والمنافذ التي يتدفق منها النور ويحيل القصيدة الى تشكيلة غريبة من الالغاز المبهمة والخطوط المتشابكة والالوان الداكنة التي تنسبب في وقوعها في اقبية مظلمة تميم حدود التجربة والخط الفاصل بين عالم الحلم والواقع وتربك حركة الاحداث والتداعيات خاصة وان بعض الشعراء يؤمنون بضرورة تسجيل كافة التداعيات والانفعالات والاصداء العفوية مهما كانت عابرة وحتى دون ان يكون لها اي مبرر او مغزى بحجة نقل التجربة اللاواعية نقلا امينا . حتى ان البعض منهم يمجز عن ادراك مغزى وقيمة بعض الرموز والصور التي تحتشد في نناجانها . وهو نطلق من فهم معين لطبيعة عملية الخلق الفني لدى الشاعر التي يرى انها تتم في جو نفسي من اللاوعي والحلم وبمعزل عن وعي وادراكه وبصيرته الناعدة . وهذا الفهم لطبيعة الخلق الفني هو بلا شك من نرسيات الفهم الرومانسي والتعبيري للعمل الشعري . فالشاعر الرومانسي يؤمن ان الشعر هو « فيض تلقائي للعواطف اللدافقة » على حد تعبير ووردزورث . اي ان مهمة الشاعر هي اثارا واستحضار وتسجيل كافة الاحاسيس والانفعالات الذاتية التي تنثال ونتهم بشكل عفوي ودونما تقييد او تنظيم . ورغم ان عملية الخلق الفني تجري خلال جو فني معين وعبر مجموع مؤثرات ذاتية وموضوعية ، الا انها لا تجري بمعزل عن درجة معينة من درجات الوعي والادراك والبيوت على حق عندما يؤكد ان على الشاعر ان يمارس تأثيرا نقديا على اثره الفني لفرض خلق توازن بين قواه العاطفية والعقلية ، وان لا تطفى الانفعالات الذاتية علسى حساب الادراك العقلي الواعي والا فان ذلك سيؤدي الى حدوث اختلال فسي توازن وتركيب القصيدة ذاتها .

ومن هنا نلاحظ ان ادراك تفسير علمي لعملية الخلق الفني له قيمة كبيرة في تحديد طبيعة التجربة وحدود تناولها ومعالجتها وصياغتها . وهذا يتطلب اعادة دراسة وتقييم لعلم النفس والتجربة الداخلية واستفاط كافة الاوهام الصوفية والثالية الذاتية والميتافيزيقية المعالقة بفهم عملية الخلق الفني ونظريات التحليل النفسي والاحلام واللاوعي . وتحضرنى هنا قصيدة كوليردج « kubla khan » التي كتبها خلال حالة اشبه بالحلم . فهي حاشدة بعدد ضخم من الرموز والرؤى والالوان والابقاعات غير المترابطة وغير المنطقية كانعكاس لحالة الحلم

آخر منشورات

دار الاداب - بيروت

ق. ١٠

● دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي

٣٥٠

● للدكتور عبد الرحمن بدوي

٢٥٠

● تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي

١٢٥

● جومبي (رواية) لاديب نحوي

● الخيل والنساء (قصص)

٢٠٠

● للدكتور عبد السلام العجيلي

● رحماك يا دمشق (قصص)

٢٠٠

● للدكتور سهيل ادريس

بحاجة الى فترة من الزمن لكي يتكامل نضجها الفني والنقدي . ولا شك ان توفير ظروف جيدة لنشر الثقافة والوعي بين الجماهير سيساهم في استيعاب وقبول واعقد واروع النتاجات الفنية والفكرية من قبلها .

وانا اذ اسوق هذه الحقيقة لا لابرر ظاهرة الغموض ، بل لاسجل قضية موضوعية لا يمكن اسقاطها عند دراسة الموضوع . وادرك ايضا ان على الشاعر الجديد ان يأخذ هذا الواقع بنظر الاعتبار لانسه لا يكتب لنفسه وليس هو بفنان ارستقراطي بل هو يكتب لكل الناس وهو مطالب - في هذا الطرف بالذات - بوضع عبقريته واشعاره في خدمة النضال العادل الذي تخوضه الامة العربية في ظلها نحو المستقبل وليسهم في تقديم رؤيا واضحة وعميقة للواقع التاريخي والنفسي المعاصر .

ولكن يجب الانتباه الى ان حل هذه المشكلة لا يتم على حساب مستوى الشعر الجديد كالتفريط في الاشكال التعبيرية والبنيائية الجديدة او في اللجوء الى التبسيط والسهولة والسطحية فهذه مسائل يجب ان يحذرنا الشعر الجديد . اذ بإمكانه تحقيق عمق وتكامل نتاجه الشعري دون اللجوء الى الغموض او السى التبسيط والسهولة . والوضوح طبعاً لا يتنافى مع العمق او الاعتماد على الالقاء والشفافية واللامباشرة ، بل هو يضمها اساساً في الشعر الجديد . كما ينبغي عدم حل المسألة عن طريق العودة الى المباشرة والى القيم الجمالية والتكنيكية للقصيدة الفئانية الكلاسيكية . فان ذلك شيء لا يمكن القبول به . اذ ان حركة التجديد الشعري مسألة تفرضها الحياة نفسها ، ويجب تلمس الحلول عبر الاتجاهات المختلفة للشعر الجديد وآفاقه المتسعة دائماً . ونحن على ثقة بان الشاعر العربي ، وخاصة الشعراء التقدمي الجديد ، سيتمكن من حل هذه القضية الملحة لصالح حركة الشعر الجديد وبالارتباط الوثيق بقضية الانسان والجماهير وبالتفاعل مع حركة المجتمع العربي ، ومن ثم تخليص القصيدة الجديدة من خطر السقوط نهائياً في هدة الغموض والتفقيد وذلك لانه يمتلك رؤيا واضحة للعالم ونهها واعيا لحركة الواقع التاريخي المعاصر ولدوره في الحياة ، ولان القصيدة الحديثة لم تزل في مرحلة التكوين والبناء وبإمكانها ان تجد الطريق المشمس دائماً .

هذه بعض الملاحظات السريعة التي اثارها في ذهني ملاحظات نقاد « قصائد العدد الماضي » . واعتقد ان المسألة تحتاج الى اسهام جميع الشعراء والكتاب في مناقشة جادة ومخلصة من اجل اغناء وتطوير شعرنا العربي الحديث .

التجربة الفعلية قد اثبتت آفة خطيرة على الشعر الجديد ينبغي تجنبها . ان التعبير الفني والحسي عن القيم والافكار الفلسفية يجب ان يتم بتفهم عميق للعمل الشعري خلال الاشكال البنيائية الجديدة وغير تجربة الشاعر الاصلية وليس عن طريق التجريد .

ويجب ان لا ننسى ان الحلقة قد تكون سبباً في فوضى واضطراب وتعقد البناء الشعري الجديد لدى بعض الشعراء كما رأينا ذلك في تجارب بعض شعراء مجلة « شعر » . والواقع ان الحلقة العربية ذات قابلية جيدة لاستيعاب التجارب الذاتية والاجتماعية والانسانية المعاصرة في حالة ازالة كافة السدود التي تمنع تطورها ومرونتها . وتبدو حجة كتاب مجلة شعر « ٢ » في الاصطدام بما اسماه بـ « جدار اللفظة » متهاينة ومهومة وغير مقنعة . وفي الحقيقة فانهم يتحملون مسؤولية تعقيد اللفظة وتحويلها الى عائق في وجهه الوضوح ومحاولات « الياس عوض » الاخيرة ما هي الا مسخ للغة واقفعال تفقيدها وارباكها !

ومن النقاط الهامة التي ينبغي اخذها بنظر الاعتبار عند دراسة ظاهرة الغموض قضية التأثير المباشر السذبي يتركه الجو الفكري والسياسي السائد في بعض البلدان العربية ، حيث يتحول الغموض الى كوى صغيرة تنفذ خلالها افكار واحاسيس وتجارب الشاعر فيلجأ الى التلميح والافراق في الالقاء والتفقيد والغموض بشكل واع مقصور . الا ان استمرار الشاعر في معالجة تجاربه ضمن هذا الإطار والمستوى قد يتسبب في النهاية في لايوعه ويترك بصماته المتميزة على شعره حتى في حالة زوال الجو المذكور . وهذه مسألة ذات اثر كبير في وقوع عدد كبير من الشعراء التقدميين العرب في آفة التعتيم والانغلاق والغموض . وفي تناولنا لمسألة الغموض ، من الضروري عدم اهمال وضع الجمهور ومستواه الثقافي . فبسبب عصور الفهر والاضطهاد الفكري والسياسي التي عاشتها الامة العربية ، ظلت الجماهير الغفيرة ترزح تحت نير الجهل والرجعية الفكرية والتأخر . اذ لم تنح لها - خلال اجيال عديدة - الظروف الملائمة لكي تتعرف الى كنوز المعرفة البشرية ولكي تواكب التطورات الفكرية العالمية ولتتمكن من ادراك قيمة الآثار الفنية المتعددة للعقل الانساني . بينما نلاحظ ان الجمهور ، في بعض البلدان المتطورة ، يتفهم ويتذوق مختلف النتاجات الفنية والادبية بسبب من الظروف الملائمة التي كونت وعيه وحسه ووجدانه . وهذه الحقيقة تؤدي الى عدم تمكن عدد غير من الناس من تقييم النتاجات الجديدة وادراكها بشكل كامل . وذلك لانها لم تعدها سابقاً وهي بعد

« ٢ » « العدو الاخير » - من مجلة « شعر » . (صيف - خريف

١٩٦٤) .

فاضل تامر

العراق

صدر حديثاً

سفر الفقر والتورة

للشاعر عبد الوهاب البياتي

ديوان جديد يسترد فيه الشاعر المبدع وجهه

العربي الاصيل ويعبر عن أعرق هموم جيلنا الثائر

منشورات دار الاداب

الثلث ٢٥٠ ق. ل